

التجديد في الادب

للاستاذ احمد امين

- ٣ -

من أوضح الظواهر أن الجمهرة العظمى من المتعلمين الذين درسوا أدباً عربياً وأدباً أجنبياً يعكفون على الادب الاجنبي يتذوقونه ويكثر من مطالعته ، في جدهم إن شاءوا الجد ، وفي لهوم ان شاءوا اللهو . وهم ان قرأوا في الادب العربي في القليل النادر ، وان فملوا لم يطلوا ولم تعمقوا ، وقل أن يدرسوا كتابا دراسة جيدة ، إنما أكبر همهم أن يقلبوا صفحات الكتاب ليقع نظرهم على أبيات من الشعر يستملحونها ، أو قصة طريفة يتفكحون بها . ومكتبتهم — على قلتها — تمثل ميلهم ، فالكتب الانجليزية أو الفرنسية فيها غالبية ، والكتب العربية قليلة نادرة . ذلك ولا شك حال أغلب المثقفين ثقافة عصرية .

ويذهب بعض الباحثين في تحليل هذه الظاهرة إلى أن السبب يرجع إلى فساد تعليم اللغة العربية وآدابها في المدارس ، فان أسانذتها لا يجيبون إلى الطلاب الادب العربي ، ولا يصلون به إلى نفوسهم ، وإنما هي أمثلة محدودة تتكرر عاماً بعد عام ، ونماذج من الشعر والنثر تعرض مرة بعد مرة ، ولا غرض من دراستها الا ان يذكرها الطلبة عند الامتحان فيؤدوها كما تليت عليهم ، ثم تذهب بذهاب الامتحان ، لانهم قد تجرعوها علي مضض ، فهم يفرحون بنسيانها فرح المريض — وقد شفي — بالخلص من دواء مر المذاق . قد يكون هذا سبباً صحيحاً ، ولكنه فيما اري ليس بالسبب الجوهرى ، فان بعض اللغات الاجنبية التي تدرس بيننا ليست دراستها باحسن حالا من دراسة اللغة العربية ، ومع هذا فالطالبة يسعون أدبها ويتذوقون كتبها بما لا يظفر ببعضه الادب العربي . اهم سبب عندي يرجع الى موقف الاديبن الادب العربي والادب الاوربي .

ذلك أن كل أدب اوروبي له قديم وحديث ، والادب الحديث هو الذي يناسب جمهور المتعلمين وعامة الشعب ، لانه في الغالب يعرض لما يشعرون به فيعبر عنه التعبير الفني ، فالاديب المحدث يرى ظاهرة اجتماعية فيضعها في قصة ، أو منظرا جميلا فيضمه في قصيدة ، أو معنى أثارته في نفوس قومه أحداث سياسية أو اقتصادية فيضعه في مقالة أو كتاب ، فيقبل الجمهور

على قراءة ذلك و يعجبون به ، وسبب الاعجاب أن الاديب شعر بما يشعر به الجمهور . واستطاع أن يعبر عنه التعبير الفني الذي لا يستطيعه الجمهور . أما الادب الاوربي القديم فانما يناسب خاصة المتعلمين لانه يتطلب دراسة لغوية وأدبية عميقة كما يتطلب — لذوقه — أن يلم المتعلم بشئ كثير من المسائل التاريخية والاجتماعية التي احاطت بالاديب وبالقطعة الفنية حتي يستطيع ان يفهمها فهمها صحيحا ، وليس ذلك في مكتبة السواد الاعظم من الناس . فالذين يفهمون الايلاذة والاديسة وخطب ديمستين قليل بالنسبة الي الذين يقرأون الادب الحديث ويفهمونه ، وكذلك الذين يفهمون الادب الانجليزي أو الفرنسي في القرون الوسطى ويتذوقونه هم الخاصة من الادياب ، وان قرأ الجمهور شيئاً من الادب القديم فانما يقرأه مترجماً الى اللغة الحديثة . او معروضا في شكل جديد قد ذلك فيه كل الصعوبات التي يحتمل أن يلقاها القارئ العادى . اما الادب الانجليزي او الفرنسي الحديث فيكاد يكون حظ الانجليز او الفرنسيين جميعا

وسبب ذلك ان الادب هو نقد الحياة في اسلوب فني ، واذ كانت كل امة تفهم حيانها الحاضرة فهما — وان اختلفوا في مقدار الفهم — كان الادب الحديث اقرب الى فهمهم وأيسر متناولاً للجمهورهم . واذ كان الادب القديم وصفاً لحياة قديمة لا يستطيع فهمها فهما صحيحا الا من عرف بيئتها وتاريخها ، كان ذلك الادب ادب الخاصة

وبعد فالادب العربي أدب قديم لا حديث له ، وان شئت تعبيرا دقيقا فقل انه ادب قديم لم يستكمل حديثه ، لذلك كان الادب العربي ادب الخاصة لا ادب الجمهور لا يستطيع القارئ ان يفهم الادب العربي القديم الا بفهم دقيق للتاريخ ، وفهم بالغ للظروف الاجتماعية التي نشأ فيها الادب ومعرفة واسعة بالجغرافيا ، وعلم تام بقوانين الصرف المعقدة كأنها قوانين اللوغارتمات ليعرف كيف يبيح في معاجم اللغة العربية عن كلمة غريبة ، وليس يصبر على ذلك كله الا المجاهدون الصابرون ، وقليل مام .

يريد سواد المتعلمين ان يغذوا مشاعرهم من حب يحلل تحليللا دقيقا ، او اعجاب بمنظر طبيعي ملك عليهم نفوسهم ، فارادوا ان يصور هذا الاعجاب في قطعة فنية ، او تبرم بأسر ورق فهم يريدون ادبا يتغنى بالحرية ويحفز النفوس الى تحقيقها ، او الم من سوء حالة اجتماعية فهم يبتغون قصة تمثلها ، او قصيدة تصفها ، او كتابا يحللها ،

او نحو ذلك من ضروب المشاعر فلا يجدوها في الادب العربي الحديث الا قليلا نادرا فيضطر الى الادب الاجنبي يقرأه ويتغنى به ويستمره ، وهو على الرغم من ان ذلك الادب ليس بلغته ، ولا يصف مشاعر تمثل بالدقة مشاعره ، ولا يحلل حالات اجتماعية تشبه مشابهة تامة حالاته ، على الرغم من ذلك كله مضطرا أن يقرأه ، اذ ليس عنده من ادبه ما يكفي لغذائه ، وفي الادب الغربي كل صنوف الغذاء على اختلاف الانواع وعلى اختلاف الاساليب ؛ ان شاء سهلا ، وجد السهل ، او صعبا وجد الصعب ، او بين ذلك وجد بين ذلك ، واذا غمض عليه لفظ استطاع ان يكشف عنه في المعاجم من اول درس تعلمه ، فكيف لاهمل بعد ذلك الادب العربي ويعكف على الادب الغربي ؟

ان شئت فوازن بين ما يدرسه الطالب في المدارس الثانوية او العالية في الاديان ، فهو في الادب الغربي يدرس شكسبير و أمثاله فيجد موضوعا شيقا يمثل حالة من الحالات التي تتصل بنفسه ، وتمس حياته الاجتماعية بقدر ما ، قد صيغت في قالب في رشيقي ، نخرج من الدرس يحبها ويحب موضوعها ، اما في الادب العربي فيدرس مختارات من جرير والفرزدق والاختل ، او مختارات من مقامات البديع والحريري او نحو ذلك ، وهذه كلها لا تمثل ناحية اجتماعية يحياها او ما يقرب منها ، ولا فكرة عميقة حللت تحليلا واسعا ، لذلك يخرج منها وهو لا يحبها ، او على الاقل يكون على الحياد منها . لست انكر ان في جرير و أمثاله ، والمقامات و أمثالها ، وفي الادب العربي على العموم جمالا وفاء وابداعا ، ولكن ذلك لا يدركه الا الخاصة الذين مروا طويلا على الدرس وبدلوا الجهد في تدريب أذواقهم على تقويمه واستساغته ، وليس ذلك في استطاعة كل الطلبة ولا اكثرهم .

فان انت نظرت الى الادب العربي الحديث فاذا ترى ؟ ترى كثيراً من الادب الغربي قد ترجم الى العربية ، وليس من الحق ان نعد هذا ادباً عربياً في جوهره وموضوعه ، اذ ليس له من العربية إلا لغة ملتوية على النمط الغربي . وترى تساجاً مبتكراً قليلا ، واكثر هذا القليل مقالات وفصول جمعت بعد ذلك وسميت كتباً مجازاً ، لا تربطها وحدة غالباً إلا بضرب من التحل . والبقية الباقية من القليل هي التي يصح ان تسمى ادباً عربياً حديثاً لم يكتمل . ذلك في نظري أكبر سبب في انصراف جمهور المتعلمين عن الادب العربي ، فان أردت اقبالهم عليه فلا بد من انتاج حديث وافر يغذي كل مشاعر الحياة كما يغذي العقول ، وليس من الحق ان ندعو السواد الأعظم الى الادب العربي قبل ان نستكملة

او على الاقل نوجد فيه ما يسد رمقهم ، وان أردنا الانصاف فواجب ان ندعو الدعوتين : دعوة الادباء في العربية الى ان ينتجوا ، ودعوة القراء الى ان يقرأوا .

وينجح الادباء اذا اقتصروا على ان يحتذوا حذو القدماء شكلا وموضوعا دون ان يمسوا حياتهم الواقعية وبيئتهم الاجتماعية ومشاعرهم النفسية ؛ فالادب متغير ، خاضع لقانون الشؤء والارتقاء ، فاذا تقيد ادباؤنا بالموضوعات التي عالجها القدماء وبالشكال التي صب فيها الادب القديم ، عدا دهم قديما لاحديشا ، ولم يصلح علاجا لما نصف من امراض .

مثال ذلك : انا اذا وضعنا ايدينا على مختارات البارودي ، وهو كتاب ضخم في اربعة اجزاء اختار فيها الثلاثين شاعرا من شعراء العصر العباسي ، وجدناه قد اختار نحو اربعين الف بيت ، منها اكثر من اربعة وعشرين ألفا في المدح ، واذا اضفت الهجاء والثناء الى المدح وجدت جميع ذلك يقرب من ثلاثين ألفا ، والربع الباقي في الادب والصفات والزهد والنسيب !

فقرى من هذا افراط الادباء القدماء في وصف العواطف الشخصية من كرم ورناء وهجاء ، وتقصيرهم في ابواب كثيرة اهمها وصف المآثر الطبيعية ، وتحليل الانفعالات النفسية ، وغير ذلك من ضروب الادب .

وهذا التقصير وقع في الادب الاوربي القديم كما وقع في الادب العربي ، فلو قرأنا شعر هوميروس وفرجيل ودانتى وجدنا فيه قليلا من وصف جمال الطبيعة من جبال وبحار ونجوم ، على حين ان الشعر الاوربي الحديث قد ملئ بهذا الضرب من القول وابدع الشعراء فيه ابداعا لاحد له فأفاضوا في القول في السماء ونجومها ، والاشجار وازدهارها وذبولها ، والبحار والصحراء وغيرها ، ووجدوا في ذلك كله كنوزا استمدوا منها شعرهم ، وكان تقصير القدماء واجادة المحدثين في ذلك قانونا طبيعيا ، لان الاعجاب بجمال الطبيعة نتيجة رقي كبير في الذوق ، فاذا قصر ادباؤنا المحدثون في هذا كما هو حادث الآن وتابوا الاقدمين في المدح والهجاء والغزل ، فقط — ظل نقص الادب العربي على ما هو عليه .

كذلك يعيش الشرقي عيشة خاصة غير التي كان يعيشها آباؤه ، سمرت المرأة بعد حجابها ، وتغير في العشرين سنة الاخيرة كل نظم الحياة تقريبا من معيشة بيتية ونظم اجتماعية ، وحياة سياسية ، واصبح كل باب من هذه الابواب يتطلب قصصا جديدا وشعرا جديدا وكتبا ادبية جديدة ، فان نظر ادباؤنا الى دواوين الشعراء الاقدمين ولم ينظروا الى دواوين الطبيعة وصحائف العالم الذي فيه يعيشون ، فلا أمل في شعرهم ، ولا نثرهم وظل المتعلم